« انظروا إلى هذه الحجارة الكريمة !. هذه الماسة هي أغلى وأشهر ماسة في الشرق ، ولم أكن استعملها أبداً . إنها تعدل من الغضب والفجور وتجعل المرء زاهداً وعفيفاً . وإذا أخذ أقل جزء منها وأحيل الى مسحوق ومزج بالماء أمكنه أن يسمم حصاناً فما بالك بإنسان » . وبإصبعه أشار الى ياقوته وقال : « أما هذه فإنها تقدم أفضل خير للقلب والعقل وتقوي ذاكرة الإنسان وتنفي الدم المتجلد الفاسد » . وأشار الى زمردة وقال : « إنها من طبيعة قوس قزح !. فهذه الحجر الثمينة عدوة الفجور والانحراف . جربوها !. فإذا اجتمع رجل وامرأة بغية الفجور انفجرت بسبب الانحراف عن السلوك الطبيعي إنني أشعر بلذة كبرى في النظر إلى اللازورد SAPHIR فهو يحمي ويزيد الشجاعة وافراح القلب ويرضي كل الحيوي من الحواس . وهو ثمين وناجع لعلاج العين والنظر ويشفي من ضربات الدم ويعطي القوة للعضلات وأوتارها ... إنها كلها هبات من الله في طبيعتها أسرار تكشفها لفائدة الإنسان وينبغي النظر إليها على أنها صديقة للفضيلة عدوة للرذيلة ... إنني أشعر بالإغماء ، إحملوني والى موعد لاحق » .

كان الكريملين ينتظر صامتا . فقد تذكر النبلاء والخوف يملأ قلوبهم كيف أنهم كانوا ينتظرون منذ ثلاثين عاما موت القيصر ثم ما لبثت أن ردت اليه الحياة . والفرق أن إيڤان كان يومئذ منقاداً للقدر بينما هو اليوم لا يريد الموت . كان مريضا جدا ولكنه لم يكن يعتقد أن وقت المنية قد حان . كانت ارادته القوية وميوله تكافح انهياره الجسدي . وقد عاودته نوباته العصبية وليالي السهاد التي كانت قد أنهكته بعد مقتل ولده . وكانوا ينقلونه خلال الليل الى خارج القصر ليرى النجمة اللامعة في سماء موسكو حيث كان نظره يبقى ساعات طويلة معلقا بهذا الضياء الرهيب . وبعد ذلك ــ عندما كانوا يعيدونه الى سريره ــ كان يهذي ويصرخ في شروده مناديا ابنه . كان الجميع حوله في حالة رعب . ولكنه ما أن يطلع النهار حتى يستعيد وعيه ويبقى متمتعا بملكاته العقلية . وكان المنجمون قد توقعوا موته في الثامن عشر من آذار مارس ولكنه لم يصدقهم